

فلسفة المعنى وحدود التداول في التفكير البلاغي عند حازم القرطاجني

الدكتورة دلال وشن

أستاذة محاضرة أ جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي (الجزائر)

sidiokba@hotmail.com

الملخص:

إن المتأمل في مسار البحث البلاغي عند العرب، يجده زاخرا بعديد التصورات والمفاهيم التي أصبحت تُعزى في ظهورها إلى الغرب، فقد كان للبلاغيين العرب القدماء السبق في تناول عديد القضايا، ولا يمكننا هنا أن نغفل مشروع حازم القرطاجني الذي أبدى وعيا كبيرا أثناء الحفر في منطقة تقاطع الشعر والخطابة بعدّهما بُعدين بلاغيين متداخلين تداخل التخيل والإقناع، ولقد شكل حازم من خلال كتابه " مناهج البلغاء و سراج الأدباء " محطة متميزة في تاريخ البلاغة العربية، وذلك بتصوره الجديد الذي جسّده مشروعه في صياغة بلاغة كلية قوامها: التخيل الشعري والإقناع الخطابي، وبمنهج يتميز برؤية منهجية تكشف عن النسق الفلسفي في علاقته بالدرس اللغوي والبلاغي.

لقد تحولت البلاغة مع حازم إلى ما يسميه هو نفسه " العلم الكلي"، وهذا العلم البلاغي يسمو فوق صناعات اللسان الجزئية، فالبلاغة هنا هي البلاغة المعضودة بالمنطق والفلسفة، فتجاوز البحث في ظواهر البلاغة لينشغل بما وراء هذه الظواهر من خفايا ودقائق، وهو الأمر الذي أهله لأن يكون تفكيرا بلاغيا خلّاقا ومبتكرا وجبت العودة إليه في إطار قضايا البلاغة الجديدة للإسهام في تصحيح أوضاع البلاغة العربية وتجديد مناهجها.

وهو ما سنحاول الإسهام فيه من خلال طرحها لقضية المعنى وحدود التداول في التفكير البلاغي عند حازم القرطاجني، ووجهات النظر فيه وستدرج المداخلة في معالجتها للطرح المذكور أعلاه وفق عناصر رئيسة أهمها:.

- الأبعاد الفلسفية والنفسية لمفهوم المعنى عند حازم القرطاجني (المعنى والمقام).

- المعنى والتخييل (حدود التداول والتلقي) عند حازم.

- بلاغة حازم في ميزان نظريات التواصل (التداوليات المعاصرة).

توطئة:

تعددت الدراسات في المعنى نظرا لأهميته، وقد ترجع أهمية موضوع المعنى وضرورة البحث فيه إلى أنه يشتمل على مجموعة من التساؤلات التي تكون لدى الدارس أو الباحث فيه فكرة واضحة عنه، ومن أهم هذه الأسئلة: ما العلاقة بين اللفظ والمعنى؟ وكيف تتغير معاني الكلمات حين يتغير الاستعمال؟ هل لكل كلمة معنى واحد أم لها عدّة معاني؟ وكيف ترتبط هذه المعاني المختلفة للكلمة الواحدة؟ وكيف نميز بين العبارات أو الجمل التي لها معنى من تلك التي لا معنى لها؟ وغير ذلك.

إن وضع تعريف جامع مانع للمعنى متفق عليه من قبل اللغويين واللسانيين والمدارس اللغوية الحديثة من الأمور الصعبة التي لم تتحقق حتى الآن، فقد قال أولمان " كتب في السنوات الأخيرة الكثير في تعريف معنى الكلمة، لكننا لم نقرب حتى الآن من جواب محدد وفي الحقيقة لا يوجد هناك جواب واحد محدد عن مثل هذا السؤال"¹.

وليست دراسة المعنى مبحثا حديثا بل كان البحث فيه منذ القدم وبشكل واسع، فهذا الجاحظ قد أعطى للمعنى جانبا كبيرا حيث يقول: " ما في اللفظ لو لا المعنى؟ وهل الكلام إلا بمعناه"². كما جعل العلم بالمعنى أمرا مشتركا، وسوّى فيه بين الخاصة والعامة فقال: " ورأيت ناسا يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط إلا في رواية غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع

الجيد ممن كان، وفي أي زمان كان"³، ويقول في موضع آخر: "وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيير اللفظ وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء وجوده السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب في التصوير"⁴. فحسن المعاني ليس في ذاتها وإنما في حسن اختيار الألفاظ المعبرة عنها وجوده تركيبها وضم بعضها إلى بعض بالطريقة التي تعبر عن المعاني وتؤدي المقاصد.

أما عن عبد القاهر الجرجاني فتكلم عن المعنى بل وأسرف فيه من خلال نظرية النظم، التي يمكن أن يقال إنها أصل علم المعاني إذ تعتمد على تعليق الكلام بعضه ببعض مع توخي معاني النحو. والنظم لا بد له من أمرين اثنين، المعنى الذي نريد التعبير عنه، ثم اللفظ الذي نعبر به عن هذا المعنى، فإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه، فلا بد أن يختلف اللفظ حتى إذا كانت مادته واحدة، فعناك إذا الصورة والمعنى الذي نعبر عنه بهذه الصورة. لأن الأصل في الكلام أن يؤتى به مساويا للمعنى الذي يدل عليه، دون أن تكون ألفاظه زائدة ولا ناقصة، أما القدرة على المطابقة التامة بين الجمل المنطوقة والمعاني المراد منها فهي من القدرات النادرة في المتكلمين من الناس.⁵

1/ المعنى عند حازم القرطاجني (الأبعاد الفلسفية والنفسية):

تسمو اللغة العربية ببلاغتها وسحرها الأخاذ، عن كثير من لغات العالم، وقبل بسط فكرة المعنى وتجلياته من منظور "حازم القرطاجني"، تجدر الإشارة إلى اعتراف الأخير في مقدمة الكتاب بتصنيف سفره هذا ضمن كتب البلاغة التي تعج بها خزانة الأدب العربي، وهو بذلك مزاحم لعبد القاهر الجرجاني، والجاحظ، والسكاكي والزمخشري والرازي والقرويني ولقيف من أئمة البلاغة. ومن هذا الاعتراف سننتقل في تقصي آثار المعنى وفنياته عند القرطاجني.

قبل الولوج إلى عمق الكتاب تجدر الإشارة إلى إقرار القرطاجني بتأثير اليونان في صناعة النقد عند العرب، وهو ما ظهر جليا في ثنايا الكتاب. وقد حدد حازم مناهج أربعة لاكتشاف المعاني، واقتفاء أثرها بين النصوص المختلفة، يمكننا ذكرها مجملة، ثم نأتي إلى التفصيل فيها بصورة موجزة:

المنهج الأول: في الإبانة عن ماهيات المعاني، وأنحاء وجودها ومواقعها، والتعريف بضروب هياتها، ووجهات التصرف فيها، وما تعتبر به أحوالها في جميع ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها.

ثانيا : في الإبانة عن طرق اجتلاب المعاني وكيفيات التثامها، وبناء بعضها على بعض، وما تعتبر به أحوالها في جميع ذلك، من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها.

ثالثا : في الإبانة عما تقوم به صنعنا الشعر والخطابة، من التخيل والإقناع، والتعريف بأنحاء النظر في كلتا الصنعتين من جهة ما به تقومت، وما به تعتبر أحوال المعاني في جميع ذلك، من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها.

رابعا: في الإبانة عن الأحوال التي تعرض للمعاني في جميع مواقعها من الكلام، فتوجد بها ملائمة للنفوس أو منافرة لها⁶.

إنها مناهج أربعة ارتأى حازم القرطاجني أن نتخذها كمعايير لفهم المعنى. وقد حدد لكل منهج معالم ومآم ومعارف، تفرض على المفتش عن المعنى أن يقف عندها. وهذا بعضها بإيجاز:

في ظل المنهج الأول يسدي لنا المؤلف خدمة جليلة، بها نفتح مستغلاقات المعاني من خلال معالم عدّها من الأهمية بمكان، كالمعلم الدال على طرق العلم بالمعاني، وحقائقتها وأنحاء النظر فيها، وبما ينبغي أن تعتبر به أحوالها من جهة ما يرجع إليها وما هو خارج عنها.

وفي هذا المعلم يؤكد الأندلسي على أن المعاني المتواردة في الذهن إنما موجودات عينية واقعية تأخذ صورا تعبيرية تواضع عليها القوم هذا على سبيل الذكر لا القصر بشأن المنهج الأول.

أما إذا رحنا نتتبع تفاصيل المنهج الثاني في هذا الكتاب القيم، فإننا نقف عند معالم ومعارف أخرى، بها يتجلى المعنى، كالمعلم الدال على طرق العلم باقتباس المعاني وكيفية اجتلابها وتأليف بعضها إلى بعض.

وبشأن هاته النقطة يفرض المؤلف على الباحث أن يكون على دراية بالشعر وأغراضه، ودرجات التأثير في الأنفس، فإن تمكن المرء من تحديد وجهة الخطاب، وقدرته على إحداث الانفعال في نفس السامع، بالنفور أو الاجتلاب أو الاستغراب أو غيرها من ردود الفعل المختلفة.

وعنون القرطاجني في كتابه كذلك " معرف دال على طرق المعرفة بأحاء وجود المعاني"، وهو في هذا لم يبتعد عن الفكرة السابقة، إلا من حيث تموضع المعنى، بحيث تتطابق معاني الذهن مع معاني الموجودات، ويكون اللفظ جسرا بينهما وتتطبع في أذهان السامعين من خلال أشكال حرفية.

ويقدم لنا الكاتب معلما دالا على طرق العلم بكيفيات مواقع المعاني من النفوس من جهة ما تكون قوية الانتساب إلى طرق الشعر المألوف، والأغراض المعروفة عند جمهور من له فهم بالطبع، أو ضعيفة الانتساب، إلى غير ذلك. وفي هذا المعلم إشارة إلى اختلاف الناس في درجات الفهم والاستيعاب وتركيز على معرفة خبايا الشعر، كي يحصل الفهم الصحيح للمعاني الكامنة.

وينتقل بنا المؤلف إلى معلم آخر لصيق كل الالتصاق بسابقه، تمثل في ضرورة التمكن من كيفيات تركيب المعاني، وتضاعفها، للمتكلم أولا وللسامع ثانيا. ويصادفنا معلم آخر من خلاله يتجلى المعنى عند القرطاجني، وهو العلم باستتارة المعاني من مكانها، واستتباطها من معانها، وهذا أمر احتيج فيه إلى دهاء ونظر ثاقب، لأنه ينطوي على فن ذي بلاغة رفيعة القدر⁷.

هذه بعض المعارف والمعالم الواردة تحت سقف المنهج الثاني في كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وقد حلأها الدكتور ابن خوجة بإضاءات وتويرات تسعف القارئ على ما جاء على لسان حازم.

المنهج الثالث: في هذا المؤلف كان في الإبانة عما به تقوم صنعتا الشعر والخطابة من التخيل والإقناع، والتعريف بأحاء النظر في كلتا الصنعتين، من جهة ما به تقوم، وما به تعتبر أحوال المعاني في جميع ذلك، من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها.

وأتحف هذا المنهج هو الآخر بجملة من المعارف والمعالم والمآم، التي رأى حازم القرطاجني المعاني حائمة حولها، وذاهبة في إثرها مثل: المعلم الدال على طرق العلم بما تتقوم به صناعة الشعر من التخيل وما به تقوم صناعة الخطابة من الإقناع، والفرق بين الصناعتين في ذلك.

حيث ركز الكاتب في هذه المسألة على وجوب تمرّس كل من الخطيب والشاعر في فنيات فنّيهما، لإقامة توليفة بين الصور الذهنية، وما يحاكيها من أقوال، وهنا يلعب التخيل دوره في إعطاء المعاني صفة الشرعية الفنية. كما جاء في هذا الإطار معلم مشتق من سالف الذكر، ألا وهو المعرف الدالّ على المعرفة بحقيقة الشعر وماهيته. حيث الشعر هو المجذاف الموجه لزورق الأنفس (حبا وكرها، تواضعا وكبرا، استمالة وتنقيرا)، إضافة إلى معارف ومعالم انضوت تحت هذا المنهج مثل:

- المعلم الدال على طرق العلم بالأشياء المخيلة.
 - معرف دال على طرق المعرفة بجهات مواقع التخيل من الأقاويل، وما بإزائها من المعاني، وما يحسن أن ينحى بالمحاكاة نحو من ذلك وما لا يحسن.
 - معلم دال على طرق العلم بما تنقسم إليه المحاكاة.
- وإلى غير ذلك من الرؤى التي أوردها الكاتب، ولم يخرج في التنبيه إليها عن دائرة النفس البشرية والمعاني الذهنية، والإسقاطات التعبيرية.⁸
- آخر المناهج هو الرابع: في الإبانة عن الأحوال التي تعرض للمعاني في جميع مواقعها من الكلام فتوجد بها ملائمة للنفوس أو منافرة لها.
- في هذا المنهج تتوضح البلاغة أكثر من أي موضع آخر، خاصة حين يتعلق الأمر بالمعلم الدالّ على طرق العلم بأنحاء النظر في أحوال المعاني وما يجب اعتباره فيها من جهة ما يرجع إليها في أنفسنا، أو من جهة ما يقترن بها ويكون لها به عقله.
- وقد ساق الكاتب كذلك معرّفا دالا على طرق المعرفة بأنحاء النظر في صحة المعاني وسلامتها من الاستحالة الواقعة بالإفراط في المبالغة. وكذلك سلامتها من الاستحالة الواقعة بفساد التقابل، وما يوضع من المعاني وضع غيره من حيث تكون واجبة أو ممكنة أو ممتعة.

إلى غير ذلك مما وضعه حازم القرطاجني كأسس لتبيين المعاني وتجليتها، وإرساء قواعدها في النفس، وكذلك إسقاطها على الموجودات والتصورات والأخيلة⁹.

2/ المعنى والتخييل (حدود التداول والتلقي عند حازم القرطاجني):

اهتم حازم القرطاجني بالبحث في مصدر المعاني، وتعلق ذلك عنده بمفهوم الشعر وماهيته، والشعر عنده: "كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها"¹⁰.

فهو يلتقي مع سابقه في تعريف الشعر من حيث الشكل، بأن الشعر كلام موزون مقفى، لكنه يخالفه في هذا التعريف من حيث التركيز على ناحية التأثير، أي حمل الشعر على التحبيب والتنفير. كما بيّن أهمية معرفة أغراض الشعر في صناعة المعنى الجميل، وهو بهذا يربط بين البلاغة والأدب، يقول: "يجب على من أراد جودة التصرف في المعاني، وحسن المذهب في اجتلابها، والحدق بتأليف بعضها إلى بعض، أن يعرف أن للشعراء أغراض أول، هي الباعثة على قول الشعر، وهي أمور تحدث عنها تأثيرات وانفعالات للنفوس"¹¹.

ارتبطت قضية المعنى في إبداع القول الشعري والنثري عند حازم بالحديث عن فكرة التخييل الذي عرفه بالقول: "والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر والمخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخييلها أو تصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبساط والانقباض"¹². وقد استعمل مصطلح التخييل قبله عند قدامة بن جعفر وعبد القاهر الجرجاني بمعان تبتعد عن المعنى الأصلي كثيرا، وجاء القرطاجني ليطبّقها على الشعر بأوسع مما طبّقها أرسطو، إذ إن التخييل هو جوهرة النظرية النقدية عند حازم، وهو مفهوم يتضمن وجود المتلقي في كل مسارات تحقّقه.

لقد استفاد حازم من التراث الفلسفي السابق عليه، واستطاع أن يرقى به إلى هذا المزيج النقدي والفلسفي الذي يظهر في كتابه وإن كان أكثر حرصا على الجانب

النقدي، فهو يجمع في تعريفه للتخييل خلاصة ما توصل إليه شراح أرسطو الذين ربطوا المصطلح ربطاً وثيقاً بعلم النفس القديم، فاستطاعوا بعد أن كيفوا معطياته مع تصورهم لمهمة الشعر. أن يدركوا الفاعلية السيكولوجية للتخييل على مستوى المتلقي لأن الصورة المتخيلة في شعر أي شاعر تعتمد من بين أشياء كثيرة على ملامح بيئته ومشاهدها، فتختزن ذاكرته تلك الملامح والمشاهد ثم تخلق قوة التخييل فيه صوراً جديدة منها¹³.

وفي تحديد حازم لمصطلح الشعر وتعريفه له يبرز قيمة هذا التحديد وما يترتب عليها في مجال النظر الشعري، فلا بد في التكوين الشعري بالإضافة إلى الوزن والقافية من الخيال لما له من وصلة وثيقة بالنفس، ولما يقوم به من تركيب للصور المخترعة وإعادة تشكيل للصور الغائبة والتي لا تخص الشاعر وحده من حيث التأثير وهذا ما عبر عنه حازم في تعريفه السابق للتخييل.

ثم يربط حازم بين التخييل وعملية التلقي أي تداولية التخييل الشعري: "فالتخييل عنده هو ما يثيره الخطاب الشعري الصادر عن الشاعر المتخيل بواسطة المعاني والأسلوب من صور يحدث تخيلها وتصورها واستدعاؤها بصورة شيء آخر انفعالا تلقائياً في نفس المتلقي، فأشارته إلى الصورة المبتكرة التي يؤلف الخيال أجزاءها على النوع من الخيال يستعيد الصورة المألوفة النائبة عن الحس، وما كان من الأقاويل القياسية مبنياً على تخييل وفيه محاكاة أو تخييل، ويقرر أن لذة المحاكاة نابعة من التعجب، ويمثل لذلك بمنظر الشمعة فهو جميل بحد ذاته، لكنه إذا انعكس على صفحة ماء صافية جاء أجمل بكثير، أولاً لحدوث اقتراحات جديدة، وثانياً لأن هذه الصورة أقل حدوثاً من منظر الشمعة ذاتها"¹⁴.

إن منهج حازم يعد امتداداً لتأثر الدرس البلاغي بالفلسفة اليونانية، وبخاصة في كتابه "منهاج البلغاء" وهو الأمر الذي دلت عليه في أكثر من موضع من كتابه، كما أنه يعد أول من استجاب لكلام ابن سينا فتمثل رأيه ونحا نحوه وبين التخييل بوضوح على منهجه.

لقد عبر حازم عن مذهبه في التخييل بأساليب متنوعة تدور أحياناً على فكرة يلم بها ثم يقسمها ويقبلها ويستنفذ مضمونها بضرب من الاستقصاء وذلك على طريقة

الفلاسفة، فوضع للتخييل أنحاء أربعة هي المعنى والأسلوب واللفظ والوزن، ورفض كل معنى و أسلوب وكلام في الشعر إذا لم يحقق التخييل¹⁵.

ثم يعرفنا حازم على الكيفية التي تحصل بها المعاني في الذهن فقال "إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ لمن لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيئات الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها"¹⁶، إذ تشكل عملية التحصيل هذه نصف عملية المحاكاة . فعملية المحاكاة تمر من الأشياء عبر الذهن إلى النصوص، وقد تحررت عملية التحصيل من السكونية التي كانت تحكمها حين قال في موضع سابق " المعاني إنما تتحصل في الأذهان عن الأمور الموجودة في الأعيان"، فكانت حسية موجودة في الأعيان، فصارت مدركة يندرج فيها المجرد والمحسوس وكانت أمورا فصارت كل شيء له وجود خارج الذهن ساكنا أو متحركا جامدا أو متطورا.

إن طبيعة المعاني التي تتحصل في الأذهان والكيفية التي تتحصل بها مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان وتتم ولادتها في الأذهان بصفقتها نتيجة حتمية لإدراك تلك الأشياء¹⁷.

ثم يحاول أن يميظ اللثام عن الطريقة التي تقتبس بها المعاني فيقول: " ولاقتباس المعاني واستتارتها طريقتان: أحدهما تقتبس منه لمجرد الخيال وبحث الفكر، والثاني تقتبس منه بسبب زائد على الخيال والفكرة"¹⁸، وأوضح ما أجمله حيث أعطى بحث الفكر صفة القوة وسمى ذلك القوة الشاعرة، بينما أفهمنا أن النوع الثاني هو اقتباس معاني من كلام جرى في نظم أو نثر أو تاريخ أو حديث، وقسم المعاني إلى ثلاثة أقسام هي: المعاني النادرة والمعاني القليلة والمعاني الكثيرة وذلك وفق سعة ارتسامها في أفكار الناس أو ضيقها¹⁹.

3/ بلاغة حازم في ميزان نظريات التواصل:

لا يمكن الحديث عن نظرية تواصلية قائمة بذاتها في التراث العربي القديم بعامه، وفي جهود حازم القرطاجني بخاصة اللهم بعض الإشارات التي تدل على اهتمامهم بالتواصل والتداول والوظيفة، وعلى المنحى الاستعمالي للغة في مؤلفاتهم.

ونلتمس التصور التداولي عند حازم القرطاجني من خلال ثلثة من النصوص لعل أهمها قوله: "لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفهمها بحسب احتياجاتهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المعاني وإزاحة المضار"²⁰، إذ يشير إلى البعد النفعي الذي ترمي إليه العملية الإبلاغية بصورة شاملة والعملية الإبداعية ممثلة في المنجز الشعري بصورة خاصة، والذي يقوم بشكل خاص على عنصري التأثر والتأثير، وهذا ما تركز عليه اللسانيات التداولية في تحليل الخطاب، مشيرا في ذات السياق إلى ضرورة احترام مقاصد المتكلم، المتحكمة بدورها في الأثر الذي سلطه النص على المتلقي، ويبدو من ناحية ثانية أن هذه المقاصد ذات صبغة حالية تقرأ قراءة سياقية، وهي من ثم جزء لا يتجزء من المقام الذي يحتل في التصور التداولي الحازمي مكانة متميزة²¹.

كما يعد حازم القرطاجني من الأفضاذ الذين تناولوا مفهوم التلقي والتواصل وبخاصة في الجزء المعنون "معلم دال على طرق العلم بما تقوم به صناعة الشعر من التخيل، وبما تقوم صناعة الخطابة من الإقناع والفرق بين الصناعتين"، حيث أشار في معرض حديثه عن الشعر والتخيل والمحاكاة إلى احتمال الكلام صفتي الصدق والكذب إما من جهة الإخبار والاقتصاص، وإما من جهة الاحتجاج والاستدلال. وكلها من مقومات الصناعة الشعرية والصناعة الخطابية، وهو اهتمام واضح بكل المظاهر اللغوية التي لها أهمية في عملية تلقي النص سواء كان شعرا أو خطابة، وتسليم بأن المتلقي شريك حقيقي في العملية الإبداعية.²²

وقد أشار الباحث محمد بنلحسن إلى أصالة حازم وأهمية أفكاره البلاغية، خاصة تلك التي اتخذت من التلقي منطلقها، فقارن بينه وبين ما أتت به نظريات التواصل الحديثة، إذ يقول مقارنا بين نظرية جاكبسون التواصلية وبين ما ورد في منهاج البلاغاء: "وإذا قارنا بين هذا الكلام الذي أتى به جاكبسون ورواد التواصل الأدبي، وما أتى به حازم، لن نجد فروقا شاسعة".²³

كما كشف الباحث أن مفهوم التلقي عند حازم لا يختلف عن مفهومه عند أقطاب نظرية التلقي الألمان أمثال يابوس وآيزر، فنجد مفاهيمهم للتلقي حاضرة في المنهاج من قبيل: الاستجابة والقارئ الضمني، أفق التوقع، التفاعل بين النص والقارئ،... الخ.

ومن المبادئ النصية التي ركز عليها حازم القرطاجني في منهاجه، التأكيد على اتساق المعاني بين الفصول، فقد ظلت رغبة حازم الجامحة في إنتاج نص منسجم ومتسق تلح عليه وتؤرقه، وهو ما عكسه إصراره المتواصل على توضيح السبيل الصحيح الذي ينبغي للشاعر سلوكه في إنتاج نصه، تجلت هذه الغاية من خلال قناعاته بأهمية السياق التواصلية في إنتاج النص الشعري وعلاقته ببناء الفصول/ النصوص التي تتألف لتشكيل بنية شمولية لنص أكبر حجماً.

من هذا المنطلق ذهب حازم إلى التمييز بين أنواع من القوائد مركزاً على نوع المعاني الموظفة ضمن هذه الفصول، فرأى أن القوائد منها ما يكون اعتماد الشاعر في فصولها على أن يضمنها معاني جزئية تكون مفوماتها شخصية، ومنها ما يقصد في فصولها أن تكون المعاني المضمنة إياها مؤتلفة بين الجزئية والكلية، وهذا هو الذي يجب اعتماده لحسن موقع الكلام به من النفس، كما كانت المعاني الجزئية مفوماتها شخصية، والمعاني الكلية مفوماتها جنسية أو نوعية، فإن الجمع بين هذين النوعين في النص المنتج، هو ما يفضله حازم القرطاجني في بناء الفصول لما له من تأثير على المتلقي من خلال هذا التنوع.²⁴

وقد عكس ذلك في قوله "لعل أحسن ما يكون عليه هيئة الكلام في ذلك، أن تصدر الفصول بالمعاني الجزئية وترد بالمعاني الكلية على جهة تمثل بأمر عام على أمر خاص أو استدلال على الشيء بما هو أعم منه أو نحو ذلك"²⁵

خلاصة البحث:

محصول القول: إن حازم القرطاجني تبنى نظرية التخييل لتأسيس تصور للشعر، وقد تأثر بالعديد من أسلافه في فكرة التخييل وعلاقتها بالمعنى، والمحاكاة ودورها في إيصال المعنى وتأديته، مؤسساً بذلك لنظرية بلاغية قوامها المعنى

والتداول والتلقي ، فلا نجد بينه وبين ما دعت إليه نظريات التواصل الحديثة فروقات شاسعة.

الهوامش:

-
- ¹ / علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1986م، ص 172.
- ² / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى بابي الجلي وأولاده، مصر، ج3، ط2، 1966م، ص130.
- ³ / المرجع نفسه، ص 131.
- ⁴ / المرجع نفسه، ص 132.
- ⁵ / ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ط4، 1997، ص 85،86.
- ⁶ / حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس ، 1966، ج 2، ص17،10،9.
- ⁷ / المرجع نفسه، ج2، ص.29، 55.
- ⁸ / المرجع نفسه، ج2، ص 79،80،81،115.
- ⁹ / المرجع نفسه، ج2، ص 115، 128،121،117.
- ¹⁰ / المرجع نفسه، ص 71.
- ¹¹ / محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، إدارة المكتبات قسم التبادل والإهداء، جامعة الكويت، ط1، 1428هـ/2007م، ص 294، 295.
- ¹² / التخيل عند حازم القرطاجني ، عدلي الهواري، أثير محسن الهاشمي ، عود الند، مجلة ثقافية فصلية، ص 12،42. ، العراق.
- ¹³ / المرجع نفسه، ص ن.
- ¹⁴ / بلعالية محمد، حازم القرطاجني وانصهار النظم والتخيل .
- ¹⁵ / المرجع نفسه، ص ن.
- ¹⁶ / حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص18.
- ¹⁷ / علي مهدي زيتون، إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي، دار المشرق، بيروت، 1986، ص 163،162.

- 18 / حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 130.
- 19 / عمر إدريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، دار الجنادرية للنشر والتوزيع، السعودية، 2009، ص 58،59،60.
- 20 / حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 216.
- 21 / نعمان بوقرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، بحوث ودراسات إسلامية، مجلة المعرفة، السنة الرابعة عشر، ع 54، خريف 2008، ص 115، 116.
- 22 / عبد المجيد مفلح، التلقي والتواصل عند حازم القرطاجني، المنهل، ع 2، 4.
- 23 / محمد بنلحسن بن التجاني، التلقي لدى حازم القرطاجني من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2007.
- 24 / رشيدة كلاع، النقد المغربي القديم في ضوء نظرية النص من خلال كتابي العمدة ومنهاج البلغاء، جامعة قسنطينة، 2013/2014، ص 221.
- 25 / حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 220.